

وَقْتُ لِلثِّقَّةِ

المحاضرة ٥: الثِّقَّةُ فِي الإِنْجِيلِ

ستيفن نيكيلس

جُورج يانسي، عالِمُ اجْتِمَاعٍ، يُدْرَسُ عِلْمَ الاجْتِمَاعِ بِجَامِعَةِ نُورْتِ تِكْسَاس. وَمُؤْمِنٌ مَسِيحِيٌّ، وَانْجَذَبَ انْتِبَاهُهُ مُؤَخَّرًا إِلَى مُصْطَلَحٍ قَدْ صَاغَهُ بِنَفْسِهِ. وَهُوَ مُصْطَلَحُ "كْرِيسْتِيَانُفُوبِيَا" (Christianophobia). وَتَمَثَّلُ دِرَاسَتُهُ، حَسَبَ اخْتِصَاصِهِ، فِي الاتِّجَاهَاتِ الْمُتَغَيِّرَةِ لِمَوَاقِفِ الْمُجْتَمَعِ الأَمْرِيكِيِّ نُجَاهِ الْمَسِيحِيِّينَ وَبِخَاصَّةِ الْمُحَافِظُونَ لَاهُوتِيًّا. فَكَيْسَ عَوَامُ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُتَشَدِّقُونَ بِمَقُولَةِ "أَجَلٌ أَنَا مَسِيحِيٌّ" فَحَسَبُ، بَلْ مُرْتَادُو الكِنَائِسِ بِانْتِظَامٍ، وَالْمُقَرَّرُونَ بِتَعَالِيمِ الكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَالْمُقَرَّرُونَ بِمَجْمُوعَةِ العَقَائِدِ اللَّاهُوتِيَّةِ، بِمَجْمُوعَةِ العَقَائِدِ اللَّاهُوتِيَّةِ الْمُحَافِظَةِ. فَهُوَ يَتَّبِعُ سُلُوكِيَّاتِ الثَّقَافَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ نُجَاهِ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُحَافِظِينَ لَاهُوتِيًّا. وَفِي مَسْعَى بَحْثِهِ، تَوَصَّلَ إِلَى هَذَا المُصْطَلَحِ، "كْرِيسْتِيَانُفُوبِيَا"، وَأَلَّفَ كِتَابًا عَنْهُ. وَقَدْ أَلَّفَ العَدِيدَ مِنَ الكُتُبِ، أَحَدُهَا بِعُنْوَانِ "مَسِيحِيُّونَ كَثِيرُونَ، وَأُسُودٌ قَلِيلُونَ" (*So Many Christians, So Few Lions*)، العُنْوَانُ الَّذِي فِي الوَاقِعِ مَقُولَةٌ قَالَهَا مُشَارِكٌ لَهُ فِي أَحَدِ الاسْتِبَانَاتِ عَنْ وُجْهَةِ نَظَرِهِمْ حِيَالَ الْمَسِيحِيِّينَ. الَّذِي هُوَ إِشَارَةٌ مُبَاشِرَةٌ إِلَى القُرُونِ الأُولَى لِلْمَسِيحِيَّةِ حِينَمَا كَانَ يُلْقَى الْمَسِيحِيُّونَ إِلَى الأُسُودِ فِي سَاحَةِ المُدْرَجِ الَّتِي كَانَتْ إِحْدَى صُورِ الاضْطِهَادَاتِ. مَسِيحِيُّونَ كَثِيرُونَ، وَأُسُودٌ قَلِيلُونَ. اسْمَحُوا لِي أَنْ أَقْتَبِسَ لَكُمْ بَعْضَةَ اكْتِشَافَاتٍ أوردَهَا فِي بَحْثِهِ:

"الأَعْضَاءُ مُؤْمِنُونَ عَامَّةً بِالْحُرَافَاتِ، وَيَتَشَارَكُونَ فِي المَوَاقِفِ عَيْنِهَا الَّتِي انْتَهَتْ بِأورُوبَا العُصُورِ الوُسْطَى بِارْتِكَابِ فِطَاحِ دِينِيَّةٍ". بِالطَّبَعِ هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى الحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ.

"إِنَّهُ مِنَ العَارِ عَلَى البَشَرِيَّةِ أَنْ لَا يَزَالَ لِجَهْلِ وَالحُرَافَةِ وَالتَّعَصُّبِ وَجُودٍ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ. يَا لَهُ مِنْ خِزْيٍ أَنْ فِي عَصْرِ التَّنْوِيرِ وَالتَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ لَا تَزَالَ حُرَافَاتُ العُصُورِ الوُسْطَى مُتَفَشِّشَةً". أَتَتَذَكَّرُونَ عِنْدَمَا تَحَدَّثْنَا سَابِقًا فِي مُحَاضَرَةِ "الثِّقَّةُ فِي الكَلِمَةِ" أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ حُجُجُكَ مُسْتِنْدَةً إِلَى العُلُومِ أَوْ العُلُومِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، فَسَتَرَى الكِتَابَ الْمُقَدَّسَ غَيْرَ مُوَاتِي وَعَفَا عَلَيْهِ الزَّمَنُ، وَلَيْسَ غَيْرَ نَافِعٍ فَحَسَبُ، بَلْ مِنَ الخَطَرِ اتِّبَاعُ تَعْلِيمِهِ. هَذَا مَا تُوجِي بِهِ هَذِهِ العِبَارَاتُ.

وَقَالَ آخَرُ: "إِنَّهُ عَزَزَ المَفْهُومَ الَّذِي لَدَيَّ بِأَنَّهُمْ فِي الغَالِبِ جَمَاعَةٌ مِنَ الأَعْيَاءِ يَفْرُضُونَ مَنَهَجَ جَهْلٍ بِوَاسِطَةِ حُلْمٍ وَهَمِيٍّ بِأَنَّ إِلَهًا أَبَوِيًّا فِي السَّمَاءِ غَيْرَ مَرِيٍّ وَأَبْنَهُ يُرْشِدَانِهِمْ فِي كُلِّ فِكْرٍ وَفِعْلٍ، أَكْثَرُ وَاقِعِيَّةٍ مِنْ حُرَافَاتِ بَابَا نُوِيلٍ وَأَرْنَبِ الفُصْحِ، لِكِنَّهُ لَا يَزَالَ فِي مَرَحَلَةِ التَّفَكِيرِ الصَّبِيَانِيِّ".

وَأَرَدَفَ فِي التَّهَيَّاتِ مَا يَلِي: "أخي-العَبْقَرِيُّ الْفَدُّ والشَّابُّ الْيَافِعُ الْمُضْطَرِبُ-جَحَدَ الْمَنْطِقِ وَالْعَقْلَ، وَالشَّحَفَ بِالْفِكْرِ الْمُحَافِظِ. يَا لَهَا مِنْ خَسَارَةٍ هَائِلَةٍ مُفْجِعَةٍ لِقُدْرَاتِهِ".

وَمِنْ خِلَالِ بَحْثِهِ، اكْتَشَفَ جُورَجُ يَانْسِي هَذِهِ الْمَوَارِدَ وَصَنَّفَهَا بِأَنَّهَا "كْرِيسْتِيَانُفُونِيَا". وَهَذَا يَبْزُغُ السُّؤَالُ. هَذَا لَا يُخْبِرُنَا فَحَسْبُ بِأُمُورٍ عَنِ الْعَالَمِ الَّذِي نَحْيَا فِيهِ، بَلْ أَيْضًا يُثِيرُ فِي عَقْلِي سُؤَالًا يَقُولُ: كَيْفَ نَتَكَلَّمُ بِالْإِنْجِيلِ إِلَى هَذِهِ الْفِئَةِ مِنَ النَّاسِ؟ وَالَّذِي يُثِيرُ سُؤَالًا آخَرَ يَقُولُ: هَلْ هَذَا الشَّخْصُ-أَوْ هَذِهِ الْفِئَةُ مِنَ النَّاسِ خَارِجَ دَائِرَةِ الْإِنْجِيلِ؟ هَلْ فِي لَحْظَةٍ مَا-كَلَّمَا نَرَى عَدَاءً أَوْ نَحْدُ أَنْفُسَنَا مُهَمَّشِينَ- سَنَسْأَلُ: "أَلَا يَزَالُ الْإِنْجِيلُ قَادِرًا عَلَى اخْتِرَاقِ قَلْبِ هَذَا الْإِنْسَانِ؟" هَلْ نَرَى فَقَطْ خُطُوطَ الْحَرْبِ مَرْسُومَةً؟ أَمْ نَرَى مُهَمَّتَنَا فِي الْمُنَادَاةِ بِالْإِنْجِيلِ وَنَدْرِكُ أَنْنَا، حَتَّى فِي وَجْهِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْعَدَاءِ، لَا زِلْنَا مَدْعُوعِينَ لِلْكَرَازَةِ بِالْإِنْجِيلِ؟ وَهَلْ نُؤْمِنُ بِأَنَّ الْإِنْجِيلَ قَادِرٌ كِفَايَةً عَلَى اخْتِرَاقِ هَذَا؟ اسْمَحُوا لِي بِأَنَّ أقدَمَ مِثَالًا مِنَ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ حَدَثَ فِيهِ ذَلِكَ. إِنَّهُ الْأَصْحَاحُ الْأَوَّلُ مِنَ الرَّسَالَةِ إِلَى أَهْلِ فِيلِيبِّي.

فِي هَذِهِ الرَّسَالَةِ نَتَعَامَلُ مَعَ أَحَدِ كُتَابِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي أَيْضًا كَانَ سَجِينًا. نَعَم، هَذَا بُولُسُ. كَانَ فِي سِجْنِ رُومَانِيٍّ. وَهَذَا مَا نَسْتَنْجِبُهُ عَلَى الْأَرْجَحِ مِنَ الرَّسَالَةِ. قَدْ يُجَادِلُ الْبَعْضُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سِجْنًا فِي رُومَا، بَلْ أَنَّ الْإِشَارَاتِ إِلَى بَيْتِ قَيْصَرٍ وَالْحَارِيسِ الْإِمْبْرَاطُورِيِّ تَمُدُّنَا بِعَلَامَاتٍ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الرَّسَالَةَ قَدْ كُتِبَتْ إِلَى كَنِيسَةِ فِيلِيبِّي حِينَمَا كَانَ بُولُسُ حَبِيسًا فِي رُومَا. عَلَى الْأَرْجَحِ بَيْنَ عَامِي وَاحِدٍ وَسِتِّينَ أَوْ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ مِيلَادِيًّا. فَكَانَ بُولُسُ، فِي زِيَارَتِهِ الْأُولَى إِلَى رُومَا، فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تَحْتَ الْإِقَامَةِ الْجُبْرِيَّةِ. وَقَدْ أُطْلِقَ سَرَاحُهُ فِيمَا بَعْدُ، وَخَاصَّ بِضَعَةِ رِحَالَتِ هُنَاكَ عَلَى مَدَارِ عَامَيْنِ. لَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ، مِنْ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَسِتِّينَ إِلَى عَامِ سِتَّةٍ وَسِتِّينَ، فِي مَكَانٍ مَا هُنَاكَ أُقْبِدُ هُوَ وَبُطْرُسُ-نَعْرِفُ هَذَا مِنْ تَقْلِيدِ الْكَنِيسَةِ- إِلَى رُومَا وَسِجْنًا، وَهِيَ الْمَرَّةُ الَّتِي لَمْ يَفُكْ فِيهَا أَسْرَهُمَا. فِي الْوَاقِعِ، هَذِهِ الْمَرَّةُ الَّتِي اسْتُشْهِدَا فِيهَا. وَحَدَّثَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ الْإِمْبْرَاطُورِ نِيرُونَ. لَمْ يَكُنْ نِيرُونَ الْإِمْبْرَاطُورَ الَّذِي حَدَّثَ فِي عَهْدِهِ سِجْنُ بُولُسِ ثَانِيَةً وَاسْتُشْهِدَ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ أَيْضًا مَنْ أَمَرَ بِسِجْنِهِ. يَضَعُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إِمْبْرَاطُورٌ أَسْوَأُ مِنْ نِيرُونَ. صَعُوا فِي الْاِعْتِبَارِ مَا رَأَيْتُمُوهُ-مِنَ الْفَطَائِعِ الَّتِي شَاهَدْنَاهَا فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ بِيَدِ حُكَّامِهِ وَقَادَتِهِ الَّذِينَ لَيْسَ أَقَلُّ مِمَّا يُقَالُ إِنَّهُمْ تَمَادَوْا فِي ارْتِكَابِ الْأَهْوَالِ-مُجَرَّدِ فَطَائِعِ وَشُرُورِ عَلَى شُعُوبِهِمْ وَعَلَى الشُّعُوبِ الْأُخْرَى-لَا يَقِلُّ نِيرُونَ عَنْ أَنْ يَكُونَ ضَمْنِ أَسْوَئِهِمْ. إِذْ اتَّسَمَ نِيرُونَ بِأَنَا مُسْتَفْحَلَةٌ وَمُسْتَوْحِشَةٌ. فِي الْحَقِيقَةِ، قَدْ نَصَبَ لِنَفْسِهِ تَمَثَالًا بَلَغَ ثَلَاثِينَ مِثْرًا تَقْرِيبًا، وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمَ "كُولُوسُوسِ" (Colossus) أَيِ الْعِمْلَاقِ، لِلاِفْتِحَارِ بِالْقَائِدِ الْعَظِيمِ الَّذِي سَكَنَ رُومَا. كَمَا عَرَسَ حَدَائِقَ لِنَفْسِهِ، وَلِلْإِسْرَاعِ فِي عَرِسَتِهَا، سَخَّرَ الْعَبِيدَ لِلْعَمَلِ عَلَى مَدَارِ السَّاعَةِ. وَبِقَدْرِ الْمُؤَرَّخُونَ بِأَنَّ لِعَرِسِ الْحَدَائِقِ فَحَسْبُ أَرْهَقَتْ أَرْوَاحُ عَشْرَاتِ الْأَلْفِ مِنَ الْعَبِيدِ بِسَبَبِ طُرُوفِ الْعَمَلِ الْقَاسِيَةِ وَالْقَبْضَةِ الْحَدِيدِيَّةِ الَّتِي اسْتُخْدِمَهَا نِيرُونَ لِدَفْعِ الْعَبِيدِ إِلَى انْتِهَاءِ الْحَدَائِقِ. كُلُّ هَذَا لَا لِشَيْءٍ سِوَى أَنْ يَقْضِيَ وَقْتَهُ فَرَاغًا بَيْنَ الْحَدَائِقِ عَلَى قَدَمَيْهِ أَوْ فِي مَرَكَبَتِهِ. فَعَلَى الْأَرْجَحِ كَانَ نِيرُونَ مَجْنُونًا فِي مَنْصِبِ الْإِمْبْرَاطُورِ. هَذَا كَانَ الْإِمْبْرَاطُورَ الَّذِي يَحْكُمُ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةَ

الرُّومَانِيَّةِ، وَيَمْلِكُ مِنْ رُومًا حِينَمَا كَانَ بُولُسُ بِهَا سَجِينًا. وَهَذَا كَانَ، فِي الْحَقِيقَةِ، الْقَيْصَرَ-سَبْدًا مِنَ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ. لَكِنْ إِنْ انْتَقَلْتُمْ إِلَى نَهَايَةِ الرَّسَالَةِ فِي الْأَصْحَاحِ ٤ عِنْدَ الْآيَةِ ٢٢ الَّتِي تَقُولُ: "يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ جَمِيعُ الْقَدِيسِينَ" يَقْصِدُ السَّاكِنِينَ فِي رُومًا-ثُمَّ يَقُولُ "وَلَا سَيِّمًا الَّذِينَ مِنْ بَيْتِ قَيْصَرَ". هَذَا نَيْرُونُ. كَانَ فِي بَيْتِ نَيْرُونِ قَدِيسُونَ. دَعَوْنَا نَسْتَوْعِبُ هَذَا.

وَالآنَ، فَلْنَعُدْ إِلَى الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ. وَسَنَتَمَعَّنُ مَعًا تَحْدِيدًا فِي الْآيَتَيْنِ ١٣-١٤. أَعْتَدْرُ، الْآيَاتِ ١٢-١٤. وَلْنَبْدَأَ بِالْآيَةِ ١٢.

ثُمَّ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنَّ أُمُورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الْإِنْجِيلِ، حَتَّى إِنْ وَثِقِي صَارَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمَسِيحِ فِي كُلِّ دَارِ الْوِلَايَةِ وَفِي بَاقِي الْأَمَاكِنِ أَجْمَعِ. وَأَكْثَرَ الْإِخْوَةِ، وَهُمْ وَاثِقُونَ فِي الرَّبِّ بُوَثِقِي، يَجْتَرِّثُونَ أَكْثَرَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ بِلاَ خَوْفٍ.

الآنَ، مَاذَا يَحْدُثُ هُنَا؟ بُولُسُ مَقْبُوضٌ عَلَيْهِ. وَعَلَى مَا يَبْدُو مُتَاحٌ لَهُ اسْتِقْبَالُ زُورَارٍ، وَمُقَابَلَةٌ رُفَقَائِهِ. لَكِنَّهُ مَقْبُوضٌ عَلَيْهِ. وَحَارِسُهُ مِنَ الْحَرَسِ الْمَلِكِيِّ أَوْ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ ذَاتِهِ، الَّذِي كَانَ يُعَدُّ قُوَّةَ الشُّخْبَةِ بَيْنَ الْجُنُودِ الرُّومَانِ، الَّذِينَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ نُخْبَةُ الْقُوَاتِ. كَانَ الْحَرَسُ الْإِمْبَرَاطُورِيُّ فِي الْأَصْلِ زُمْرَةً حِرَاسَةَ قَيْصَرَ، مِنْ ثَمَّ، وَلَا تَسَاعِ سُلْطَتِهِمْ، صَارُوا زُمْرَةً حِرَاسَةَ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ وَالْمَسْؤُولِينَ الرُّومَانِ الْمُنتَشِرِينَ فِي أَرْجَاءِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ. وَكَانَتْ مُنَاوَبَتُهُمْ فِي الْخِدْمَةِ تَمْتَدُّ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ إِلَى عَامٍ حَتَّى عَامٍ وَنِصْفٍ يُبْعَثُونَ فِي أَثْنَائِهَا إِلَى أَرْجَاءِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَكَانُوا يَتَبَدَّلُونَ بِسُهُولَةٍ مِنْ تَكْلِيفٍ إِلَى آخَرَ. لَكِنْ إِبَانُ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمِيلَادِيِّ، اِزْدَادَتْ قُوَّةُ الْحَرَسِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ-الَّذِي أُسِّسَ لِحِمَايَةِ الْقَيْصَرَ- وَازْدَادَ تَرَاوُهُ مِمَّا أَخَافَ الْإِمْبَرَاطُورَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ لِاحْتِمَالِيَّةِ تَنْفِيذِهِمْ انْقِلَابًا عَسْكَرِيًّا. فَإِنْ كُنْتَ تَرَعْبُ فِي رَمَزٍ لِلْقُوَّةِ الرُّومَانِيَّةِ وَسُلْطَتِهَا، لَيْسَ أَمَامَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَرَسِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ.

هَذِهِ كَانَتْ الثَّقَافَةُ الرُّومَانِيَّةُ الْمُقَاوِمَةُ لِلْمَسِيحِيَّةِ. فِي الْحَقِيقَةِ، أَطْلَقَتْ رُومًا تَسْمِيَتَيْنِ عَلَى الدِّيَانَاتِ. أَوَّلُ هَاتَيْنِ التَّسْمِيَتَيْنِ كَانَ "لَيْسِيَتَاسُ رِيلِيْجِيُو" (*Licita Religio*)، الَّتِي تَعْنِي بِالْعَرَبِيَّةِ "دِيَانَةٌ شَرْعِيَّةٌ"، لَيْسِيَتَاسُ رِيلِيْجِيُو. أَمَّا الثَّانِيَةُ فَكَانَتْ "إِلَيْسِيَتَاسُ سُوْبَرْسْتِيْشِيُو" (*illicitas superstitio*)، الَّتِي بِمَعْنَى خُرَافَاتٍ. لَمْ تُسَمَّ حَتَّى بِدِيَانَةٍ غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ. لِتَوْضِيحِ حَقِّ مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ، سَمَّوْهَا "إِلَيْسِيَتَاسُ سُوْبَرْسْتِيْشِيُو". وَمَعَ اسْتِيْلَاءِ رُومًا عَلَى شُعُوبٍ أُخْرَى، وَكَانَ لِتِلْكَ الشُّعُوبِ-فِي الْعَالِبِ دِيَانَاتُهَا مُتَعَدِّدَةٌ الْآلِهَةِ، فَلَا بَأْسَ- فَهِيَ مُجَرَّدُ آلِهَةٍ أُخْرَى نُضِيفُهَا إِلَى بُوْتُقَتِنَا، فَنَحْنُ لَدَيْنَا أَيْضًا آلِهَةٌ رُومَانِيَّةٌ تُشْبِهُ فِي وَظَائِفِهَا تِلْكَ الَّتِي لِآلِهَةِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، سَوَاءً إِنْ كَانَتْ بِأَسْمَاءِ رُومَانِيَّةٍ، أَوْ أَسْمَاءِ يُونَانِيَّةٍ، أَوْ أَيًّا كَانَتْ أَسْمَاءُ هَذِهِ الْآلِهَةِ. لَا بَأْسَ. فَنَحْنُ جُزْءٌ وَشُرَكَاءُ فِي مَحْفَلِ الْآلِهَةِ الْعَظِيمِ، فَلْنُضِيفِ الْمَرِيدَ مِنَ الْآلِهَةِ لِهَذَا الْخَلِيطِ وَهَذِهِ الْبُوْتُقَةِ. فَبِاسْتِيْلَاءِ رُومًا عَلَى هَذِهِ الشُّعُوبِ، مُتَعَدِّدَةُ الْآلِهَةِ فِي الْعَالِبِ، يُطْلَقُ عَلَى هَذِهِ الدِّيَانَاتِ اسْمُ "لَيْسِيَتَاسُ رِيلِيْجِيُو"، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ لَهُمْ الْخُرَيْتَةَ فِي مُمَارَسَةِ دِيَانَتِهِمْ. أَيُّ خُتِمَتْ بِخْتِمِ مُوَافَقَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ

الرُّومَانِيَّةِ، لِمَارسَةِ شَعَائِرِهِمُ الدِّينِيَّةِ بِحُرِّيَّةٍ. أَمَّا الْيَهُودِيَّةُ فَقَدْ حَظِيَتْ بِاسْمِ "لَيْسِيَتَاس رِيلِيَجِيُو" لِأَنَّهَا فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ لَيْسَتْ قَائِمَةً عَلَى التَّبَشِيرِ. كَانَ الْأَمْرُ هُنَا مِنْ شَاكِلَةِ "السِّيَاحِ الْجَيِّدِ بَيْنَ الْجَارِ وَالْجَارِ يَجْعَلُ الْعِلَاقَةَ بَيْنَهُمَا طَيِّبَةً". لَكِنْ مُنْذُ الْبَدَاةِ كَانَتْ الْمَسِيحِيَّةُ تُعَدُّ إِلَيْسِيَتَاس سُوْبِرْسْتِيَشِيُو". فِي الْوَاقِعِ، بِحُورَتِنَا وَثِيْقَةً لِلْمُورِّخِ الرَّومَانِيِّ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمِيْلَادِيِّ تَاكِتْسُ الَّذِي أَرَّخَ لِلْقِيَاصِرَةِ وَأَرَّخَ لِتَيْرُونَ نَفْسِهِ خَاصَّةً الْعِلَاقَةَ الْمُهِمَّةَ بَيْنَ نَيْرُونَ وَالْمَسِيحِيِّينَ عَامَ أَرْبَعَةٍ وَسِتِّينَ وَحَادِثَةَ حَرِيْقَةِ رُومَا. فَمَا اسْتَشْفَقْنَا مِنْ الْمُورِّخِينَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ نَيْرُونَ هُوَ الْمَدَانُ بِحَرْقِ رُومَا. إِذْ أَرَادَ التَّخْلُصَ مِنَ الْأَحْيَاءِ الْفَقِيرَةِ وَأَكْوَاحِهَا فِي رُومَا مِنْ أَجْلِ خِطَطِ مَبَانِيهِ الضَّخْمَةِ لِيَجْعَلَ مِنْ رُومَا مَدِينَتَهُ الْعَظِيمَةَ. لِذَا أَمَرَ جُنُودَهُ بِإِسْعَالِ التَّيْرَانِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ، لَكِنْ حَرَجَ الْأَمْرَ عَنِ السَّيْطَرَةِ وَأَنْتَهَى بِالتَّيْهَامِ التَّيْرَانِ مَسَاكِينَ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَادَ نَيْرُونَ أَوْ حَتَّى تَحْتَلَّ. فَالآنَ صَارَ هُوَ الْمَسْئُولُ عَنْ هَذَا. وَبَدَأَتْ الْإِسْعَاةُ تَنْتَشِرُ بَيْنَ الشَّعْبِ بِأَنَّ نَيْرُونَ هُوَ الْمَسْئُولُ. وَرُبَّمَا قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ "نَيْرُونَ كَانَ يَعْرِفُ مُوسِيْقَى أَثْنَاءَ حَرِيْقِ رُومَا". وَحَتَّى إِنْ كَانَ نَيْرُونَ غَيْرَ مُذْنِبٍ أَوْ مَسْئُولٍ، فَهُوَ لَمْ يَظْهَرْ عِنْدَمَا احتَاجَتْهُ رُومَا. لِذَا، كَمَا يُخْبِرُنَا تَاكِتْسُ، احتَاجَ إِلَى كَبِشٍ فِدَاءٍ. لِذَا نَسَجَ الشُّهُمَةَ لِشَنَابِ طَائِفَةٍ مَكْرُوهَةٍ. طَائِفَةٌ مَمْقُوتَةٌ. فَلِمَاذَا كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ مَكْرُوهِينَ؟ لَقَدْ كَانُوا يُعَلِّمُونَ أَخْلَاقِيَّاتٍ تَفُوقَ الَّتِي كَانَتْ لِمَنْ حَوْلَهُمْ. لَقَدْ نَشَرُوا الْفَضِيلَةَ. لَقَدْ نَشَرُوا الْفَضِيلَةَ فِي مَحَلِّ الْعَمَلِ. أَيُّ لَا يُمَكِّنُ التَّارِيخِي عَنِ الْعَمَلِ لِمُجَرِّدِ أَنَّ رَبَّ الْعَمَلِ غَيْرُ صَالِحٍ. لِأَنَّكَ تَعْمَلُ أَمَامَ الرَّبِّ. فَأَنْتَ مُلتَزِمٌ بِتَأْدِيَةِ عَمَلِكَ كَمَا لَوْ أَنَّكَ تُؤَدِّيهِ لِلرَّبِّ. فَكَانَتْ أَخْلَاقِيَّاتُ عَمَلٍ لَمْ يَرَهَا أَيُّ إِنْسَانٍ فِي التَّارِيخِ. لَكِنْ كَرِهَهُمْ مَنْ حَوْلَهُمْ بِسَبَبِ لَاهُوتِهِمُ الْمُحَافِظِ. فَيَقُولُ تَاكِتْسُ إِنَّ الشُّهُمَةَ أُلْصِقَتْ بِجَمَاعَةٍ هِيَ الْأَكْثَرُ كُرْهًا بِسَبَبِ مُمارَسَتِهَا الدِّينِيَّةِ الْمَمْقُوتَةِ. وَاسْمُهَا عَلَى اسْمِ قَائِدِهِمْ كْرِيسْتُوسَ الَّذِي مَاتَ مَصلُوبًا تَحْتَ حُكْمِ بِيْلَاطُسَ البُنْطِيِّ. فَلِذَا صَارُوا مُذْنِبِينَ، صَارُوا مُذْنِبِينَ بِجَرِيْمَةِ إِلَيْسِيَتَاس سُوْبِرْسْتِيَشِيُو". وَهَذِهِ كَانَتْ الثَّقَافَةُ الرَّومَانِيَّةُ الَّتِي نَشَأَتْ الْكَنِيسَةُ فِيهَا. كَانَ جُرْمًا أَنْ تَكُونَ مَسِيحِيًّا. فَالآنَ نَحْنُ أَمَامَ وَاقِعِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْمَسِيحِيَّةَ جَرِيْمَةٌ. وَأَمَامَ الْحَادِثَةِ الثَّالِيَةِ. يَا لَهَا مِنْ حَادِثَةٍ غَرِيبَةٍ فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ رِسَالَةِ فِيلِيْبِّي. لِأَنَّ رَمَزَ الثَّقَافَةِ الرَّومَانِيَّةِ هَذَا قَدْ انْضَمَّ إِلَى حُدُودِ الْإِنْجِيلِ. لَمْ يَكُنْ خَارِجَ نِطَاقِ الْإِنْجِيلِ، وَلَمْ يَكُنْ مَنِيْعًا لِدَرَجَةٍ أَنْ يَصُعَبَ عَلَى الْإِنْجِيلِ اخْتِرَافُهُ. فِي الْوَاقِعِ، لَقَدْ اخْتَرَقَ الْإِنْجِيلُ وَاسْتَوَلَى عَلَى هَذَا الْمَكَانِ بِالتَّحْدِيدِ حَيْثُ نَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى الْأَرْجَحِ بَيْنَ الْحَرَسِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ.

ثُمَّ أَرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنَّ أُمُورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الْإِنْجِيلِ، حَتَّى إِنْ وَثِقِي صَارَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمَسِيحِ فِي كُلِّ دَارِ الْوِلَايَةِ وَفِي بَاقِي الْأَمَاكِينِ أَجْمَعِ.

سَاعُودُ سَرِيْعًا إِلَى عِبَارَةِ "فِي الْمَسِيحِ". تَتَمَثَّلُ الْفِكْرَةُ فِي أَنَّ الْحَرَسَ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ، تَدَكَّرُوا، كَانُوا يَنْتَقِلُونَ إِدَارِيًّا. أَيُّ كَانُوا يُؤَدُّونَ خِدْمَتَهُمْ، ثُمَّ يَتَلَقَّوْنَ مُهِمَّةً جَدِيدَةً، فَتَذْهَبُ مَجْمُوعَةٌ جَدِيدَةٌ لِتَأْدِيَتِهَا، وَفَجْأَةً يَبْدُؤُونَ فِي التَّحَدُّثِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ عَنْ هَذَا السَّجِينِ الْغَرِيبِ فِي رُومَا، السَّجِينِ الْمُخْتَلِفِ عَنْ أَيِّ سَجِينٍ آخَرَ كَانَ الْحَرَسُ

الإمبراطوري مكلّفًا به، لأنّ هذا السّجين كان يطبّق وصيّة محبّة الأعداء ويحيّاها. ممّا أثار إعجابهم للغاية. فقد كان هذا السّجين لا يُحدّثهم بكلام التّاس الذي قد سمعوه كثيرًا ومن كثيرين، بل كان يُحدّثهم بكلام الله. ولم يكن متحمّسًا لخطبتهم بفلسفات أرضيّة أو بتلك التي لثّساعدهم، كما تعلمون، أن يكونوا أشخاصًا أفضل. كان هذا السّجين يعظّمهم بأقوال الحياة الأبديّة: يا أنجيل يسوع المسيح. وها قد أُعلن الإنجيل. وهذا ما نحتاج إلى رؤيته. أي نُقدت المعركة إلى ساحتهم. في روما في عهد نيرون وتحت حراسة الحرس الإمبراطوري، نجح الإنجيل وكان قويًّا وأحدت اختلافًا.

فماذا يعني كلّ هذا؟ انظروا إلى تبعات هذا وآثاره. فلم ينتشر الإنجيل بين الحرس الإمبراطوري، ويسمعوا عن المسيح، ويسمعوا عن الإنجيل، بل "وأكثر الإخوة" - يقصد على الأرجح الذين في روما، فنحن الآن نتحدّث عن الإخوة في روما - الواقفين أمام بوابة قصر قيصر! فإن مارسوا مسيحيّتهم علنًا، سيُكشّفون. وماذا نفعلهم هذا؟ فكانوا "واقفين في الربّ" - لا يتنصّب بولس نائبًا في مجلس الشيوخ ولا بانتزاع بولس "جائزة الخطابة للمواطنين الرومانيّ عام خمسة وخمسين" - بوثقي بولس. مرّة أخرى، هذا مخالف للمنطق، أليس كذلك؟ لذا كانوا واقفين في الربّ. لم نكن لنتوقّع هذه العبارة: "بوثقي". لكنّها في الواقع ما منحهم الثّقة. وبسبب ثقتهم هذه، ماذا فعلوا؟ "يجترّون أكثر على التّكلم بالكلمة بلا خوف". في هذه الآية كلمة لم نتحدّث عنها بعد. وهي الخوف. في تلك الأوقات من التّغيير الثّقافي، وفي أثناء تلك التّحوّلات، وإبان تلك الطّروف المتقلّبة حينما لم تكن الأرض تحت أرجلهم، لم يتعلّق الأمر بعدم اليقين فحسب. تعلق بالخوف، زمن الخوف، الزمن الذي ترون فيه البطش والقهر، والاضطهاد المُحدق، وقوّة العدو. إنّه زمن الخوف. لكن ليس لمسيحيّ روميّة هؤلاء.

ففيما تمثّل انعكاس ذلك؟ تمثّل انعكاس هذا على أهل فيلبي في أنّهم غدوا أكثر جرأةً بقيود بولس، ويمثّل مسيحيّ روما. لذا استطاع أهل فيلبي المناداة بالإنجيل بجرأة. أرى مؤمنًا بعينه من كنيسة فيلبي كان الأكثر فرحًا في أثناء قراءة هذه الرّسالة. وهو السّجان. أراه - أيامناكم تحيّل أنكم في مدينة فيلبي، وتصلّكم الأخبار: "مرحبًا، وصلت للتور رسالة من بولس وستقرأ علينا في يوم الربّ هذا؟" أيمكنكم تحيّل هذا؟ فتتجمعون في كنيسةكم المنزليّة في فيلبي، ولقافة الرّسالة أو صفحاتها من ورق البردي في يد الرّاعي، إن كانوا مشيخيّين، في يد الشيخ ويقف أمام الكنيسة المُجمّعة ويقرأ للمرّة الأولى الرّسالة إلى أهل فيلبي. ويقول إن الحرس الإمبراطوري يسمعون عن المسيح. ويجلس السّجان، ربّما على المقعد الثّاني من الصّف الثّاني، مسرورًا ومبتهجا قائلاً: "كنت هناك. وسمعت عن المسيح. وأدرك ما يتحدّث عنه بولس". أليس كذلك؟ لكن هل ترون ما يحدث هنا؟ جرأة بولس في الشّهادة، تجرّي أهل روميّة. وبلوغ هذه الشّهادة إلى أهل فيلبي، تجرّوا في الشّهادة. فلننتسجع بهذا. للإنجيل قوّة. ولنا كل الأسباب الموجبة لنضع ثقتنا في الإنجيل. في الواقع، نحن ملزومون بهذا. نحن ملزومون بالمناداة بالإنجيل.

أَيَّامِكُمْ الْعُودَةَ مَعِيَ إِلَى الْأَصْحَاحِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سَفَرِ إِشْعِيَاءَ. لَا أُرِيدُ سِوَى التَّنَظَرِ إِلَى هَذَا. لَقَدْ أَمْضَيْنَا وَقْتًا فِيهِ. وَأُرِيدُ أَنْ أَمْضِيَ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي أَوَّلِ بَضْعَةِ آيَاتٍ مِنْهُ. سَابِقًا، بَدَأْنَا مِنَ الْآيَةِ ١٢ إِلَى نِهَآيَةِ الْأَصْحَاحِ. فَأَنَا أُرِيدُ التَّنَظَرَ فِيمَا قَبْلَ الْآيَةِ ١٢. سَابِقًا مِنَ الْآيَةِ الثَّاسِعَةِ مِنَ الْأَصْحَاحِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سَفَرِ إِشْعِيَاءَ: "عَلَى جَبَلٍ عَالٍ اصْعَدِي، يَا مُبَشِّرَةٌ صِهْيُونُ". أَتَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُهُ الْمُنَادُونَ؟ يُبَشِّرُونَ بِالْأَخْبَارِ. إِنَّهُ سُؤَالٌ مُخَادِعٌ. الْمُنَادُونَ يُبَشِّرُونَ بِالْأَخْبَارِ. يَذْهَبُونَ إِلَى مَكَانٍ مَا وَيُذَيِّعُونَ الْأَخْبَارَ.

عَلَى جَبَلٍ عَالٍ اصْعَدِي، يَا مُبَشِّرَةٌ صِهْيُونُ. ارْفَعِي صَوْتَكَ بِقُوَّةٍ، يَا مُبَشِّرَةٌ أُورُشَلِيمَ. ارْفَعِي لَا تَخَافِي. قُولِي لِمَدِينِ يَهُودَا: "هُودَا إِلَهَيْكَ. هُودَا السَّيِّدُ الرَّبُّ بِقُوَّةٍ يَأْتِي وَذِرَاعُهُ تَحْكُمُ لَهُ. هُودَا أُجْرَتْهُ مَعَهُ وَعَمَلَتْهُ قَدَامَهُ. كِرَاعٌ يَرَعَى قَطِيعَهُ. بِذِرَاعِهِ يَجْمَعُ الْحُمْلَانَ، وَفِي حِضْنِهِ يَحْمِلُهَا، وَيَقُودُ الْمُرْضِعَاتِ".

وَهَا هُوَ مَا سَنَقُومُ بِهِ: سَنَقُفُ عَلَى جَبَلٍ عَالٍ، وَسَنُنَادِي بِجُرْأَةٍ وَنُعَلِنُ الْخَبَرَ السَّارَّ. لَكِنَّ لَنْ نَقُولَ: "هُودَا اللَّهُ". بَلْ سَنَقُولُ "هُودَا حَمَلُ اللَّهِ! الْحَمَلُ الْمَذْبُوحُ عَنِ خَطَايَانَا". وَهَذَا هُوَ الْخَبَرُ السَّارُّ. هَذَا هُوَ الْإِنْجِيلُ. لَقَدْ بَشَّرْنَا أَحَدَ هَؤُلَاءِ. لَقَدْ أَدْرَكُوا الصَّرُورَةَ الْمَوْضُوعَةَ عَلَيْهِمْ، وَأَدْرَكُوا الْقُوَّةَ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْإِنْجِيلُ، وَكَرَّرُوا لَنَا بِالْخَبَرِ السَّارِّ. وَسَمِعْنَاهُ مِنْهُمْ. وَرُوحُ اللَّهِ فَتَحَ عُيُونَنَا، وَصَرَّنَا أَبْنَاءَ اللَّهِ. فَمَهْمَّتُنَا الْآنَ أَلَّا نَتَجَبَّنَ وَأَلَّا نَخَافَ وَأَلَّا نَنْظُرَ قَائِلِينَ: "رُبَّمَا هَذَا الْإِنْسَانُ عِدَائِي أَوْ رُبَّمَا خَارِجُ حُدُودِ الْإِنْجِيلِ وَنِطَاقِهِ". لَا. صَنَعُوا ثِقَتَكُمْ فِي الْإِنْجِيلِ وَكَرَّرُوا بِالْخَبَرِ السَّارِّ.

فَلْتَثِقُوا بِالْإِنْجِيلِ. فِي مُحَاصَرَتِنَا الْأَخِيرَةِ، سَنَتَحَدَّثُ عَنِ الثِّقَةِ فِي الرَّجَاءِ. سَنَتَحَدَّثُ عَنْ هَذَا مَعًا فِي الْمُحَاصَرَةِ الثَّالِثَةِ.

الدكتور ستيفن نيكيلس (@DrSteveNichols) هو مدير كلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College)، والمسؤول الأكاديمي الرئيسي في خدمات ليجونير، وعضو هيئة التدريس في خدمات ليجونير. وهو مؤلف العديد من الكتب ويقدم برامج إذاعية قصيرة بعنوان "٥ دقائق في تاريخ الكنيسة" (5 Minutes in Church History) و"الكتاب المفتوح" (Open Book).